

المُعْجَمِيَّةُ وَهَاجِسُ التَّجْدِيدِ

Lexicalism and obsession with renewal

د. حفيظة مخلوف*

جامعة سعيدة- الدكتور مولاي الطاهر (الجزائر)

makhloufhafida@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2024/02/08

تاريخ الاستلام: 2023/03/07

ملخص:

إن الغرض من تناول موضوع صناعة المعاجم، هو محاولة للوقوف على التوجهات التجديدية استناداً إلى المؤروث المعجمي العربي في هذا الشأن. إذ لا يمكن لأي حركة تجديدية أن تنطلق من فراغ. فقد خلف القدامى موسوعات ضخمة وإن كانت تجميعية في الأساس. من ذلك ((لسان العرب ومعجم الأدباء ومعجم البلدان ومعجم الشعراء)) وغيرها. لكن بالنظر إلى ما اتسمت به المعاجم القديمة من تعقيد مثل: ((لسان العرب والقاموس المحيط)) حيث يصعب على الباحث والمتعلم أن يجد المفردة بسهولة، لأنه يُجبرُّ على البحث عن جذرها أولاً- وفي ذلك مشقة وإضاعة وقت- فإنَّ المحدثين سعوا إلى إيجاد سبل لتيسيرها عبر ترتيب المفردات ترتيباً أبجدياً عادياً في بعض القواميس. واهتمَّ الغربيون في السنين الأخيرة بضرورة الاستفادة من علوم اللغة المستجدة كاللسانيات وعلم الدلالة وغيرها، فيما أصبح يُعرف ب: ((المُعْجَمِيَّةُ التفسيرية التأليفية مقارنة معنى ⇔ نص)). وبذلك صارت صناعة المعجم تستوجب فرق عمل وجملة من الخطوات الإجرائية التنفيذية تستثمر منجزات المدارس اللغوية المعاصرة في النظرية كما في التطبيق، فضلاً عن استغلال الوسائل التكنولوجية المتاحة، وهذا بالنسبة للغة العربية مازال يقتصر على بعض الجهود الفردية التي قد لا تتجاوز المستوى النظري إلى المستوى العملي التطبيقي.

الكلمات المفتاحية: المعجم-المؤرث-التعقيد-التفسير-التأليف.

Abstract:

from a vacuum. The ancients left huge encyclopedias, albeit essentially compilation. From that '((Lisan Al-Arab, Lexicon of Writers, Lexicon of Countries, Lexicon of Poets)) and others. However, in view of the complexity of the old dictionaries, such as: ((Lisan al-Arab and al-Qamoos al-Muhit)), where it is difficult for the researcher and the learner to find the word easily, because he is forced to search for its root first - and is hardship and a waste of time - so the modernists sought to find ways To facilitate it by arranging the vocabulary in a regular alphabetical order in some dictionaries. In recent years, Westerners have been interested in the necessity of benefiting from emerging language sciences such as linguistics, semantics, and others, in what has become known as: ((lexical explanatory composition approaching the meaning of ⇔text)). Thus, the dictionary industry requires work teams and a number of executive procedural steps that invest the achievements of contemporary linguistic

schools in theory as well as in practice, in addition to exploiting the available technological means, for the Arabic language, this is still limited to some individual efforts that may not exceed the theoretical level to the applied practical level.

Keywords: Lexicon; inherited; complexity; interpretation; authorship;

. مقدمة:

كثيراً ما يصادف القارئ نصوصاً تحتوي على مفردات صعبة لم يسبق له أن ألفها فيكون ذلك عائقاً أمام فهم محتواها والاستفادة من مضامينها، خاصة إذا كانت هذه المفردات تستحوذ على مساحة كبيرة من النص، ولم يهتدِ إلى شرحها أو إلى من يوجهه إلى كيفية تذليل صعوبتها مما يترتب عليه مشقة في الفهم، قد تؤدي إلى نفوره من النصوص وعدم الإقبال على قراءتها وتدوّقها .

لعل ذلك من العوامل التي جعلت العرب ينكبّون على تجميع لغتهم في موسوعات معجمية تخضع إلى منهج خاص لدى كل من أقدم على هذه الصناعة الشاقة. وبالرغم من أنهم أسندوا معاني المفردات بالشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر، إلا أن ما اعتمدوه من ترتيب وتبويب ومن ضرورة البحث عن جذر الكلمة يحتم على المرء أن يقوم بعمليات متعبة قبل أن يصل إلى المعنى.

لذلك عكف بعض المحدثين على مراجعة الطريقة التي تُصنع بها المعاجم لاختصار المسافة أمام المتعلّم والباحث كي يصل إلى المعنى مباشرة. غير أن ذلك لم يعد كافياً أيضاً إذ بعد ظهور النظريات اللغوية المعاصرة، كاللسانيات والدلالة وكذا تطور الوسائل التكنولوجية، صار ضرورياً أن تفيد المعجمية من منجزاتها. من ذلك مثلاً: مقارنة " معنى ⇔ نص " فيما يُعرف ب: ((المعجمية التفسيرية التأليفية)). التي تقوم على أسس صورية ورياضية.

إن صناعة المعجم العربي حالياً، بدأت تتلمّس طريقها نحو وضع منهجية محدّدة الخطوات الإجرائية والتنفيذية، لكنها تقتصر على جهود فردية محدودة. من هنا يسعى هذا العرض الموجز إلى الوقوف على بعض ملامح التجديد في هذا الموضوع.

1. المعجمية وهاجس التجديد:

1.1. في المؤروث المعجمي:

القرآن الكريم هو الكتاب المؤسّس للحضارة العربية الإسلامية. وقبل الدعوة الإسلامية كان العرب شتاتاً من القبائل واللهجات. وبفضلها صارت الغلبة للسان قريش. جاء في مفصل (جواد علي):

(فلسان القرآن، لسان العرب جميعاً من مهاجرين وأنصار، لا لسان قريش خاصة، والنبي إن كان من قريش لكنه كان عربياً من صريح العرب، ودعوته لم تكن دعوة ضيقة خاصة بقريش، إنما كانت دعوة عامة جاءت إلى كل العرب، قوم النبي، ولهذا نزل بلسانهم، وبهذا جاءت الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾¹. سورة إبراهيم ، الآية 4.

ثم ظهرت الحاجة لتحويل اللسان إلى لغة، فانكبوا على التعقيد لضبط قواعدها في النحو والصرف والبلاغة وغيرها من فروع اللغة المعروفة.

كما حتم تطور المجتمع واختلاط الأجناس أن يحرصوا على سلامة النطق فجاءت حركات الإعراب قياساً على حركة اللسان والشفثين فقليل: مرفوع ومنصوب ومجرور وعلامات الرفع والنصب والجر والضم والفتح والكسرة. وليكون السكون انقطاع الحركة.

إن مراعاة طبيعة الأصوات في الحروف العربية هي التي جعلت (الخليل بن أحمد الفراهيدي) يضع أول معجم حسب مخارج الحروف انطلاقاً من أبعد موقع في الحلق مروراً باللسان فالشفثين. ولكن من الصعب اليوم- إن لم يكن من المستحيل- أن يوجد عقل موسوعي كالخليل الذي تبخر في النحو والصرف وتأمل الصوت والدلالة اللغوية، لذلك لا بد من فرق تشتغل معاً وفق تخصصات مختلفة.

لقد قام الأوائل بعمل ضخم تمثل في جمع المادة وارتأى (الخليل بن أحمد) أن يقلب الكلمة على وجوه ليصل إلى جذرها الذي قد يكون مستعملاً وقد يكون مهملاً. لكن المتعلم يجد صعوبة في البحث حين يعود إلى المعاجم القديمة.

فإذا أخذنا ((القاموس المحيط للفيروز آبادي)) على سبيل المثال لا الحصر، فإن في ترتيبه نوعاً من التعقيد. فإذا أردت أن تبحث عن معنى : (النهب والوثب) فينبغي أن تعود إلى فصل النون والواو- باب الباء. فهو قد جعل الحرف الأول من الكلمة فصلاً وآخرها باباً.

ومن المشاكل المتعلقة بطبيعة اللغة العربية، هي أن المفردات يصيها التصحيف إذا لم تُلحق بالحركات، بحيث يمكن لحركة واحدة أن تسبب في تغيير المعنى كما في (البرّ والبُرّ والبرّ)، والحروف المتشابهة في الرسم لا يفرق بينها إلا التنقيط، فإذا سقطت نقطة أو زادت يختلف المعنى. وهذه الظاهرة الخاصة بالتنقيط والحركات كانت الأساس في تعدد القراءات القرآنية. وقد تتكرر المفردة الواحدة عدة مرّات فلا يتحدّد معناها إلا من خلال السياق . كقول شاعر:

يا ويح قلبي من دواعي الهوى... إن رحل الجيران عند الغروب
أتبعهم طريقي وقد أزمعوا... ودمع عيني كفيض الغروب
باتوا وفيهم طفلة حرة... تقشر عن مثل أفاحي الغروب

فالغروب في البيت الأول غروب الشمس وفي الثاني ماء الدلو وفي الثالث الأراضي المنخفضة. يضاف إلى ذلك ((عدم ثمثل المؤلفين للغرض من المعجم فهم جميعاً سواء من أطال ومن اختصر يريدون أن يجمعوا اللغة بواضحها وبغريبها ونادرها ولغاتها، أن يجمعوا معاً معارف العرب أو النواحي المختلفة من الثقافة العربية حتى أصبحت معاجمنا كبرج بابل يحوي من كل صنف وتختلط فيه كل الأصناف اختلاطاً عجيباً))²

وهي على الرغم من ذلك تشكو قصوراً فلا تفي بالمعنى الدقيق. كما هي حال المعاجم المعاصرة أيضاً حيث تعتمد التقسيم الموروث بين عامي وفصيح، ولا تتفق على ما ينبغي أن يُحتفظ به من ترادف ومشارك ومهمّل وأضداد

وفروق، كما قد لا تلتفت إلى مفردات مبتكرة في الأدب المعاصر عن طريق النحت مثلاً: "المتشائل"، حيث يراد بها التفاؤل والتشاؤم، و"الأعداء" وهي جمع بين الأصدقاء والأعداء.. إلخ). بالإضافة إلى ما في العامية من بقايا الفصح والذي إذا استعمل سيكون أقرب إلى الفهم.

2.1. عن المصطلح:

تُعَدُّ مادة أعجم من الأضداد، فمن معانيها: (أبهم وألكن وعَيِي)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ سورة فصلت الآية 44 وقال الشاعر:

منهل للعباد لا بد منه منتهى كل أعجم وفصح
كلّ ما لا يحسن النطق بالعربية أو غير العربي، وقد قيل: والأعجم الفصح كلّ ناطق،

فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ لِلشَّرِّ أَقْبَلُوا... وَنَابُوا إِلَيْنَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ

وقولهم حروف مُعْجَمَة أي منقوطة للتوضيح ورفع الالتباس وخلافها المَهْمَلَة. ومنها: (أفصح وأبان وأعرب). ومن معنى الإبانة والإفصاح اختيرت تسمية المعجم. ثم برزت تسميات أخرى - قديماً وفي العصر الحديث - وفق ما يراه المؤلّف كالقاموس عوض (المعجم). فالقاموس الذي يعني البحر ليست له علاقة معنوية بالعمل المعجمي إلا من حيث هو تشبيه إشهاري للدلالة على سعته وإحاطته الشاملة بموضوعه. كما قيل: ((كتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرد)) و((تأجّل اللّغة وصحاح العربيّ للجوهري)) و((لسان العرب لابن منظور)). و((النحو الوافي لعباس حسن)) و((المنهل لسهيل إدريس)) وهكذا.. وتوسّع استخدام "معجم" فلم يقتصر على شرح الألفاظ إذ أطلق على الموسوعة وامتد إلى مجالات أخرى مثل: ((معجم الأدباء ومعجم البلدان ل: ياقوت الحموي، ومعجم الشعراء للمرزباني، ومعجم القراءات القرآنية ل: أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم، ومعجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، ومعجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين، ومعجم الترجمة والمصطلحات وغيرها..)).

هكذا شاع استعمال تسمية "معجم" أكثر من غيرها، بينما يفضّل (محمد رشيد حمزاوي) استعمال "مُعْجَمِيَّة" بفتح الميم للدلالة على صناعة المعجم فإذا كان اشتقّها من فعل "مُعْجَمَ" قياساً على صيغ مستحدثة مثل: (مُسْرَحَ ومُكَنَّ ومَأَسَسَ) فمن الأصح "أن تكون "مُعْجَمَه". هذا يدل على أن المصطلح يعاني من الاضطراب والتشويش لأننا غالباً نتلقاه من الغرب دون وعي بخلفيته المعرفية والثقافية. يقول السعيد بوطاجين في هذا المعنى:

((ثمة إشكالية أخرى تواجهنا، وتتعلّق بمستويات تُلَقِّي المصطلحات الأجنبية وترجمتها إلى العربية، خاصة عندما تؤخذ بشكل عارض، أو بإدراك طارئ لا يؤسّس على خلفية معرفية شمولية تدرك المحيط الثقافي الذي أنتج المصطلح))³.

وتمييز إبراهيم بن مراد بين مفهومين للمصطلح، ((أحدهما يتعلق برصيد المفردات المشترك بين أفراد الجماعة، ((ومفهوم المصطلح الثاني خاص وهو أنه مدوّنة (corpus) المفردات المعجمية في كتاب مرتّبه ومعرّفة بنوع ما من الترتيب والتعريف))⁴.

3.1. محاولات التجديد:

لقد أدرك المحدثون هذه الصعوبة كما هي في ضرورة معرفة جذر الكلمة لبلوغ معناها. فعمدوا إلى استثمار تراث القدماء ومحاولة تبسيطه. لذلك اهتمّ الباحثون في عصرنا بصناعة المعاجم فيحدّد (أحمد، مختار عمر) الخطوات الإجرائية والتنفيذية كالتالي⁵.

فالنسبة لمؤسسة النشر يجب:

((وضع تصوّر مبدئي

-حساب التكلفة

-التخطيط للعمل ووضع جدول زمني

-إعداد فريق العمل

ثم تليها خطوات أخرى:

1-تحديد المصادر وجمع المادة.

2-اختيار الوحدات المعجمية التي ستشكل مداخل المعجم.

3-معالجة المادة من نواحيها المختلفة.

4-اختيار طريقة لترتيب المعجم)).

ولعلّ أوضح مثال على مسّعاهم نحو التيسير هو ما نجده في القاموس الموسوم ب: ((الألفبائي)). حيث جاء في الإضاءة: ((كان من توصيات "ندوة التربية الأولى لبلدان المغرب العربيّ التي انعقدت بتونس من 14 إلى 20 فيفري (شباط) 1964 وشارك فيها مندوبون من ليبيا والجزائر والمغرب وتونس: "أن تسعى البلدان الأربعة إلى وضع قاموس مدرسي عصري تتوفّر فيه الدقّة ويسر الاستعمال")⁶.

وبعدما يوضح (محمود المسعدي) في تقديمه أنه يجب أن ننظر إلى اللغة بوصفها كائناً حيّاً يخضع للتطور، يضيف: ((فقد منّ الله على هذه اللغة بأجيال من العلماء الأصلاء استطاعوا أن يغوصوا على حقيقتها ويتبيّنوا أسرارها ويبلوروا كنهها ويسبروا أبعادها، حتى باتت اللغة العربية من بين اللغات الأتمّ والأعمق والأصحّ علمياً تعريفها وتحليلها.

ولكنّهم لم يفعلوا ذلك إلا في حدود "المنزلة القدسية" التي رسموها لها وفرضوها عليها كرهاً))⁷.

جاء هذا القاموس ثمرة جهد جماعي تبين من خلاله أنَّ المؤلفين يتميّزون بكفاءة عالية واختاروا منهجاً يسهّل على المتعلّم أن يذهب إلى الكلمة مباشرة دون مشقّة تقليب المفردة والبحث عن جذرها. وتظهر عملية التجديد فيما يلي:

1. إخضاع المداخل الرئيسية في القاموس للترتيب الأبجدي العادي.
2. ترتيب الألفاظ المضاعفة الحروف تحت عنوان مادّتها.
3. جمع الأفعال المزيدة المنتمية لمختلف الحروف وإلحاقها بحرف واحد.
4. إعطاء الأولوية في مادة الأفعال الثلاثية الواحدة ل: فعل، ثم فعل ثم فعل.
5. ضبط صيغة الأمر للأفعال، مع ذكر مصادرها، وإثبات المشهور منها.
6. إثبات الأسماء مجرّدة من (ال).

وقد راعى المؤلّفون ضرورة وضع الشواهد المتنوعة فجاء أنّه ((اشتمل هذا القاموس على 3137 آية قرآنية و387 حديثاً نبوياً شريفاً و304 أمثال و1663 بيتاً من الشعر، ولم تقتصر الشواهد الشعرية على القدامى، بل أوردنا شواهد من شعر المحدثين أيضاً))⁸.

أمثلة:

((آخر : الآخر هو الغير (ج) أخر، قال تعال : { ولا تدع مع الله إلهاً آخر } .
بطن: البطن خلاف الظهر، من كل شيء جوفه، وفي الحديث الشريف: ((ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن)).
مناخ: المناخ هو مبرك الإبل، قال المتنبي:

لحى الله ذي الدنيا مُناخاً لراكب... فكل بعيد لهم فيها مُعَيَّبُ

أنجز: يُنجز، أنجز، إنجازاً حاجته. قضاها- الوعد: وثى به، جاء في الأمثال: أنجز حرّ ما وعد، يُضرب لمن وعدَ أتمّ)).

والواقع أنه يوجد أيضاً المنجد الأبجدي الذي هو إضافة إلى (منجد) (لويس معلوف) الذي أصدره عام سنة 1908. وتمّ ترتيبه حسب حروف المفردة دون اعتبار لجذرها.

إن الغرض من إيراد الشواهد يدل على أن الألفاظ لا يكتمل معناها إلا في سياق، وهي ظاهرة حاضرة في التراث العربي منذ القديم. إلا أن المفردة لا يمكن أن يُحصر معناها في شاهد واحد أو بعض الشواهد. لذلك لم تبق صناعة المعجم في حدود النظرة التقليدية.

فأما كتاب (هادي العلوي): ((المعجم العربي الجديد)) فقد أفرد فيه فصلاً لقضايا معجمية. فسجّل فيه مآخذ على المعجم الوسيط الذي صدر عن مجمع القاهرة سنة 1960 ثم ذكر بعض المزايا منها: تضمين بعض الألفاظ المحدثّة والمولّدة والمصطلحات الحديثة وقبول العرب على نطاق واسع وإدخال بعض المفردات العامية فضلاً عن دعوته إلى النحو الساكن.

ذلك لأن ما يهّم المؤلّف ليس وضع معجم وحسب، بل لأنه ينظر إليه في صلته بعموم اللغة العربية، كعلاقة المنطوق بالمكتوب ومشاكل النحو والإعراب وقضايا الاصطلاح ومستلزمات لغة العلم وغيرها ممّا قد يشكل عقبات في طريق النهوض بهذه اللغة التي يخاف على مستقبلها حين يقول: ((ولعلّ اللغويين الذين يحرسون اللغة بقوة الأمر والنهي، إنما يحرسون ضريحاً لا كائناً حيّاً، وهم في قيامهم بدور السدنة لا بد أن ينتهوا باللغة إلى الانحسار، أمام تحدّيات البرهة الراهنة، في لغة كتابة تُتلى في المعابد ولغة كلام تُقضى بها أمور الحياة اليومية أو ينظم بها الشعر في أحسن الأحوال، منتهين بأهلها في آخر المطاف إلى البحث عن لغة صديقة يتعاملون بها مع العصر الحديث))⁹.

لقد اهتمّ الغربيون منذ سنين بعلوم اللغة وضرورة إدراجها في صناعة المعاجم. ومنها اللسانيات وعلم الدلالة. لكن لا بد من التمييز بين موضوعين ملتصقين ببعضهما:

((موضوع فن صناعة المعاجم (Lexicology) إذن هو البحث في الوحدات المعجمية من حيث هي مداخل معجمية تجمع من مصادر ومن مستويات لغوية ما. أما موضوع "علم المعاجم (Lexicography)، فهو البحث في الوحدات المعجمية من حيث مكوناتها وأصولها وتوليدها ودلالاتها، وتطورها باختلاف العصور وموت بعض معانيها والعوامل المختلفة التي ترجع إليها هذه الظواهر والنتائج اللغوية التي تترتب على كل منها، والقوانين التي تخضع لها في مسارها))¹⁰.

وبما أن صناعة المعجم أصبحت اليوم تنهل من علوم مختلفة، فقد استوجب أن تتكفّل بهذه المهمة فرق عمل. وظهرت نظرية مقارنة " معنى $\Leftrightarrow$ نص " فيما يُعرف بـ: ((المُعْجَمِيَّة التفسيرية التأليفية)). والتي يُعدُّ (إيغور ميلتشوك) الروسي مؤسسها.

((سُمّيت هذه المقاربة مقارنة " معنى $\Leftrightarrow$ نص لأنها تبحث عن المعنى في العبارات والتعابير التي يتشكّل منها النص. إن البحث عن المعنى في الوحدة المعجمية تجاوز مستوى الوحدة المعجمية. وبات البحث عنه في النص أمراً ملحاً. استناداً إلى هذه القناعة المعرفية، فإن نظرية معنى $\Leftrightarrow$ نص تؤمن معرفياً بقدرة اللغات الطبيعية على ربط المعاني بالنصوص. لذلك تأسست هذه النظرية على أساس استنباط المعنى من النص معتمدة في ذلك على نمذجة لغوية صورية معتبرة الوصف اللساني القائم على أسس صورية ورياضية أحد أهم مبادئها))¹¹.

وهي تعتمد أربعة عناصر أساسية كما يوردها (محمد الركيك):

1- مبدأ الصورية.

2 - مبدأ الانسجام الداخلي.

2- مبدأ المعالجة المماثلة.

4- مبدأ الشمولية.

وتنتهي إلى المعادلة التالية:

دقّة=صورية +انسجام داخلي +مماثلة+شمولية.

أخيراً يتأكد أن جهود الباحثين في المعجم العربي مازالت فردية أو محتشمة، وتعرضها عقبات في طرائق التدريس سواء فيما يتعلق بالمتعلمين العرب أو لغير الناطقين بالعربية. وبهذا الصدد أشار بعض الباحثين إلى أننا: ((نفتقر عند إعداد المواد التعليمية للمبتدئين في تعلم اللغة العربية إلى ثلاثة أمور، أولها: تحديد المواقف العامة التي يتوقع أن يمر بها الدارس من غير الناطقين بالعربية في تعامله اليومي، وفي المواقف العامة الأخرى التي يواجهها في أثناء التعامل مع الناطقين بهذه اللغة. وثانيها: تحديد المفردات الأساسية التي تلي حاجات المبتدئين من الدارسين، مما يمكنهم من الاتصال بمتحدثي العربية في أقطارها المختلفة. وثالثها: تعرف الملامح الحضارية البارزة في البلاد العربية))¹².

لذلك لا بد من نهضة تستثمر منجزات المدارس اللغوية المعاصرة، وتستغل المتاح من الوسائل التكنولوجية المتطورة. يقول علي القاسمي:

((وخلاصة القول أن صناعة المعاجم على صلة وثيقة بعلم المصطلح وبنوك المصطلحات والترجمة اليدوية الآلية، وتؤدي وظيفة على جانب كبير من الأهمية في حياتنا العلمية والاقتصادية وفي العلاقات بين الأمم، ويستحسن تعميم صناعة المعاجم في أقسام اللغة العربية واللغات الأخرى في جامعاتنا ومنح شهادات عليا في هذا التخصص))¹³.

فالموضع اليوم بقي في حدود هواجس تحركها النوايا الحسنة من أجل التجديد، لكنها مازالت عاجزة عن بلوغ الهدف المنشود. ثم، حتى ولو استعملت كل الوسائل المستحدثة. وتمت صناعة معجم على أسس علمية دقيقة، فإنها ستبقى بلا جدوى إذا لم تطور طريقة تدريس اللغة العربية ولم ينسّر قواعدها لأن القواعد كثيرا ما تصبح غاية في ذاتها. ولو أن الباحثين يحددون نظرياً جملة من المعايير منها:

-الاقتصار على ما يهّم الفئة المستهدفة، وقد جاء هذا من أثر فلسفة التدريس بالأهداف واستُغلت قبل ذلك في المجال العسكري. لأن تحديد الهدف هو الذي يمكن من تقييم العملية.

-أن يأتي الشرح مبسطاً يعتمد فيه على المتداول، والاستفادة مما بقي من فصيح في العامية.

-الابتعاد عن تعقيد المسائل النحوية والصرفية واختيار ما يعين على نطق الكلمة وضبطها.

-عدم التوسّع في المسائل الصرفية والاكتفاء بصيغة واحدة تصلح لأن تكون مدخلاً معجمياً.

-تنوع الشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعيون الشعر والأمثال والحكم.

إن هذه المعايير تبدو معقولة على المستوى النظري، لكن المعضلة تكمن في التطبيق. فالنسبة للفئة المستهدفة إذا كنا نسعى إلى أن يفيد من المعجم طلبة في السنة النهائية من التعليم الثانوي، فإن التفاوت حاصل بشكل كبير فضلاً عما تعانيه قاعة الدراسة من اكتظاظ يزيد من اتساع الهوة بين المتعلمين. ثم إن اختزال التنوعات الصرفية سيضطدّم باتجاهين: محافظ ومجدّد الأمر الذي من شأنه أن يصعب التوافق بين الفريقين.

فأما الاقتصار على معلومات بعينها من النحو والصرف، فذلك أصبح يمثل معركة أخرى تتجلى في بعض الدعوات كان دشّنها (ابن مضاء) ثم ظهرت أصوات معاصرة منها من يقول:

((إن الإعراب هو المشكلة الأساسية في لغتنا الحديثة فهو يضيف عبئاً زائداً على تعليم اللغة يثقل كاهل المتعلمين ويضيع عليهم في نفس الوقت إمكانات الإتقان للغة القراءة والكتابة بعد مرحلة التعليم الأول.

وتشتد وطأة الإعراب في لغة التلاوة حيث نجد الاصطدام بفروض النحو المعرب يجعل العربي عاجزاً عن الإلقاء السليم واللبق حتى لما يكتبه بنفسه.))¹⁴.

وكتاب (هنادا طه) ((مختصر المختصر)) يمثل محاولة منها لتبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة والإملاء. لكن يبدو أن محاولتها لا تطال طريقة التدريس بقدر ما تختصر القاعدة في فقرة أقصر مما توجد عليه في بعض الكتب. وكتاب ((جناية سيوييه)) لتركيا أوزون، الذي ينطلق من أن (سيوييه) لم ينجح في عقلنة النحو العربي فيقول: ((إن سيوييه لم ينجح في عقلنة قواعد اللغة العربية (...)) والسبب ببساطة يعود إلى أن سيوييه - كونه فارسي الأصل - قام بوضع قواعد لأمثاله في ذلك الوقت كي لا يلحنوا في لفظ كلمات اللغة العربية - لغة العلم والمعرفة آنذاك - لذلك فقد انصب اهتمام سيوييه على النقل وعلى حركة أواخر الكلمات))¹⁵.

إذا كانت صناعة المعجم تقتضي الإلمام بمختلف فروع اللغة وسائر العلوم الإنسانية، فمن باب أولى أن تؤخذ هذه الدعوات على محمل الجد. لأنها - بالتأكيد - لن تكون عابرة. ثم إن أي عمل يضع لنفسه هدفاً محدداً يستدعي - حتماً - ثلاث مراحل أساسية:

الأولى: تتعلق بجمع المعطيات وهي في اتجاهين: أولهما: له صلة بمحيط الفئة المستهدفة ولغتها، وثانيهما: استغلال المناهج المقترحة واستثمار المادة المتوفرة قديماً وحديثاً.

والثانية: الشروع في وضع المعجم ضمن فريق متعدّد التخصصات.

والثالثة: الانتقال إلى تقييم العملية في ضوء ما يسفر عنه التطبيق ونتائجه الملموسة في الميدان.

إن اللغة العربية التي كانت تحتضن التنوع الثقافي والعلمي ونهضت بالحضارة الإنسانية وانتشلتها من الضياع في زمن ما، مازالت قادرة على أن تزاحم بقية اللغات، إذا انكب أهلها على تغذيتها بالمناهج العلمية المتطورة.

خاتمة:

تضمنت هذه الورقة المختصرة، نماذج مما توصّلت إليه صناعة المعاجم. هي صناعة لا يمكن أن تستقيم من غير أن تستند إلى الموروث المعجمي العربي، وإن اتّسم بالتجميع إلا أنه يشكل مادة لا غنى عنها. ذلك ما حصل عند وضع ((المعجم الأبجدي أو الوسيط أو الألفبائي)).

لكن الدعوة إلى التجديد والتيسير مازالت قائمة ولا يكفي أن تقتصر على الجهود الفردية في زمن تفرّعت فيه التخصصات واستحدثت نظريات معاصرة في علوم اللغة المختلفة.

إن بعض اللغات الأجنبية قد ابتكرت لها طرائق تسمح للمتعلّم أن يحصّلها في مدة قياسية. لذلك أصبح من الضروري تقليص الفجوة بين الفصحى والعامية من غير ابتذال ودون الحرص على تصيّد ألفاظ مهجورة، كما لا بد من النظر إلى قضية المعجمية في صلتها بسائر علوم اللغة حتى تصبح التلاوة وسيلة للقراءة، لا أن يكون الإعراب أو النحو غاية في ذاته. إذ لم تُهتدِ إلى طريقة مثلى في تدريس النحو، بحيث يصعب على كثير من الدارسين أن يتجنبوا

الأخطاء إذا لم يكن النص مضبوطاً بحركات الإعراب. ثم أدّى هذا الوضع ببعض الباحثين إلى أن يفكّروا في إلغاء الإعراب تماماً وهي دعوة متطرفة لا جدوى منها.

ثم إن قضية المصطلح مازالت تسبح في فوضى بالرغم من وجود المجامع اللغوية في بعض البلدان العربية ما يستدعي ضبطه وتوحيده.

إن العلاقة العاطفية باللغة ضرورية، لكن العاطفة التي لا تُضاء بنور العقل لا يمكنها وحدها أن تحافظ على اللغة. فما أكثر اللغات التي اندثرت على الرغم من أن أهلها كانوا يحبونها حباً جماً.

لذلك إذا أردنا للغة العربية أن تصبح لغة العلوم والحضارة كما حصل في العصور المزدهرة، فلا بد أن ينكبّ خبراء مختصّون للبحث في الآليات والمناهج التي تحقق عملية الإصلاح المنشودة.

الهوامش:

- ¹: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره، هـ 1413-1993 م، ج 8، ص: 654.
- ²: حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، ج 1، دار مصر للطباعة، 1408 هـ-1988 م، ص: 603.
- ³: السعيد بوطاجين، الترجمة والمصطلح، الدار العربية للعلوم ناشرون-منشورات الاختلاف، ط 1، 1430 هـ-2009 م، ص: 115.
- ⁴: إبراهيم بن مراد، مجلة المعجمية، تونس، ع 9-10-1994، ص: 29.
- ⁵: أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، مكتبة لسان العرب، ط 2، القاهرة، عالم الكتب، 2009 م، ص: 65.
- ⁶: مجموعة من المؤلفين، القاموس الجديد الألفبائي، الأطلسية لنشر، تونس، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 10، 1417-1997، ص: 7.
- ⁷: المرجع نفسه، ص: 9.
- ⁸: المرجع نفسه، ص: 7.
- ⁹: هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، 1983، ص: 3.
- ¹⁰: إبراهيم بن مراد، مقدمة لنظرية المعجم، مجلة المعجمية، العددان 9 و 10، 1991-1992، تونس، ص 49.
- ¹¹: محمد الركيك، المعجمية التفسيرية التأليفية مقارنة، معنى ⇔ نص، مجلة نقد وتنوير، ع 6، السنة الثانية، (كانون الثاني) يناير 2021، ص: 135.
- ¹²: رشدي أحمد طعيمة، الأسس المعجمية والثقافية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، مكة المكرمة، شعبان 1406 هـ-يونيه 1986 م، ص: 8.
- ¹³: علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، جامعة الملك سعود، 1411/1991، ص: ع.
- ¹⁴: هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، 1983، ص: 58.
- ¹⁵: زكريا أوزون، الرقص التام لما في النحو من أوهام، رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، تموز-يوليو، 2002، ص: 18.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم بن مراد، مقدمة لنظرية المعجم، مجلّة المعجمية، العددان 9 و 10، 1991.
2. أحمد، مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، مكتبة لسان العرب، ط 2، القاهرة، عالم الكتب، 2009 م.
3. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره، هـ 1413 - 1993 م.
4. حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، ط 2، مكتبة مصر، 1968.
5. زكريا أوزون، الرفض التام لما في النحو من أوهام، رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، تموز-يوليو، 2002.
6. السعيد بوطاجين، الترجمة والمصطلح، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، ط 1، 1430 هـ - 2009 م.
7. علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ط 1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2003.
8. علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، جامعة الملك سعود، 1991/1411.
9. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط 2، 1371 هـ - 1952 م.
10. مجموعة من المؤلفين، القاموس الجديد، الألفبائي، الأطلسية للنشر، تونس، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 10، 1997-1417.
11. محمد الركيك، المعجمية التفسيرية التأليفية مقارنة، معنى $\Leftrightarrow$ نص، مجلة نقد وتنوير، العدد السادس، السنة الثانية، (كانون الثاني) يناير 2021.
12. هادي العلوي، المعجم العربي الجديد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، 1983.